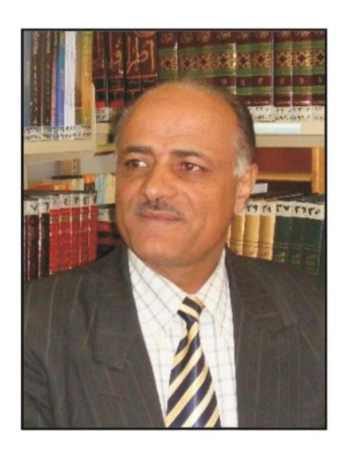


31
العدد (28)
إبريل
يونيو
2023م

دولة ابن مُقَيْص في حضرموت

(في مصادر ووثائق تاريخية تُنشر لأول مرة)

(١ - ٢)



أ.د. علي صالح الخلاقي*

توطئة:

ربما لم يسمع كثيرون باسم (دولة ابن مقيص) التي ظهرت في حضرموت الداخل مطلع أربعينيات القرن الثالث عشر الهجري، وتحديداً سنة ١٢٤٢ هجرية، وليس سنة ١٢٤٣هـ، كما سنبينّ لاحقًا، ولم يكتب لها البقاء طويلاً؛ إذ شهدت نهايتها التدريجية خلال الثلاث السنوات اللاحقة، ولذلك ارتبطت في الذاكرة الحضرمية في كونها أقصر دولة تُذكر في تاريخ حضرموت، حتى أصبحت محل تهكُّم وسخرية؛ لقصر عمرها، الذي لم يتجاوز العامين، بل غدت مثلاً يضرب به في قصر المدة، فيقال: (كما دولة ابن مقيص)؛ دلالة على عدم الثبوت والاستقرار والاستمرار. ومثلما كان عُمرها قصيراً، فإن تاريخها ما زال مُبهماً وغامضًا، والمعلومات التي وصلتنا عنها شحيحة ونادرة جداً، تقتصر على شذرات ونتف من أخبارها، مما ورد هنا وهناك في بعض المؤلفات الحضرمية، التي تكرِّر المعلومات الشحيحة نفسها، مع بعض التضارب.

ما حفزني للكتابة عنها هو حصولي على ثلاث وثائق تاريخية مهمة، ذات صلة بدولة ابن مقيص، تعود إلى فترة نشوئها، وهي ليست وثائق رسمية، وإنما رسائل شخصية مُرسَلة من حضرموت إلى يافع، لكنها مصادر أصيلة، لا لبْسَ فيها، وتحتوي الجديد والمفيد، محفوظة في خزائن الوثائق بحوزة أسرة فقهاء بني بكر - يافع (آل عز الدين)، والفضل في ذلك يعود لخازن





هذا التراث النفيس الشيخ ناصر علي محمد الفقيه بن عزالدين البكري، الذي بادر مشكوراً لإخراج هذه الكنوز من أقفاصها، التي ظلت حبيسة فيها لأكثر من قرنين، وأتاح تصوير الكثير منها؛ لتكون في متناول الباحثين، ولاسيما تلك الوثائق التي وردت فيها أخبار الأحداث التاريخية في حضرموت وعلاقتها بيافع، ومن ضمنها هذه الوثائق النفيسة، التي تعرضت لأحداث تلك الفترة ضمن الأخبار العامة، ومن ذلك شمولها على حلقات مهمة مفقودة من أخبار نشوء دولة ابن مقيص؛ إذ تكشف لنا جوانب مهمة من ذلك الغموض الذي اكتنف تاريخها القصير منذ لحظة تأسيسها عقب وصول ابن مقيص من مهجره في جاوا (أندونيسيا)، بما كسبه من ثروات مالية، عاد بها معه إلى حضرموت وحتى نهايتها.

والرسائل هي حسب تسلسلها الزمني:

(١) الرسالة الأولى: مرسلة من سيئون من عبد الحبيب بن صالح بن محمد سعيد الجحوشي وعلي بن عمر شهابي إلى يافع - بني بكر إلى كل من: الفقيه عبد الحبيب بن أحمد حيدر والفقهاء حيدر عبدالله وعبدالرحمن بن علي سعيد حيدر البكري، محرَّرة في النصف من شهر صفر سنة ١٢٤٣ هجرية.

(٢) الرسالة الثانية: مُرسلة من المكلا من عبد الحبيب بن صالح بن محمد سعيد الجحوشي الضُبي، محررة في ١٦ شعبان (لم يرد ذكر السنة)، ومرسلة إلى بني بكر إلى الفقيه عبدالحبيب بن أحمد حيدر وعبدالرحمن وعلي وحيدر بن عبدالله الفقيه.

(٣) الرسالة الثالثة: مُرسلة من منصب عينات، أبي بكر بن أحمد بن سالم (١٢٤٢-١٢٦١ هجرية)، أرسلها إلى بني بكر - يافع إلى كل من: الشيخ الفقيه عبد الحبيب بن أحمد حيدر والشيخ عبدالله بن عوض دينيش وكافة المحبين بني بكر والمحب محمد صالح، وهي بدون تاريخ.

وتكمن القيمة التاريخية لهذه الرسائل المهمة في كونها معاصرة وقريبة من الأحداث، اثنتان من سيئون وواحدة من المكلا، وتعرضت بشكل متفاوت لبعض أخبار حضرموت في مجالات شتى، تفيد الباحث في الشأن الحضرمي عن تلك الفترة، وضمن ذلك أخبار دولة ابن مقيص، أو سلطنة ابن مقيص، حسب توصيف بعض تلك الرسائل، التي احتوت على حقائق ومعلومات جديدة ومفيدة عنها، من ذلك إعادة النظر في تاريخ نشأتها، ومواقف كثير من القوى منها، وأسباب فشلها. وهذه الوثائق مصادر أصيلة وأساسية، لا يرقى إليها الشك، وتميط اللثام عن بعض جوانب الغموض لهذه الدولة، وتبين المواقف المساندة والمعارضة لها. ومن بين تلك الرسائل ما يكتسب أهمية خاصة وهي رسالة منصب عينات، التي أوضحت لنا لأول مرة موقف عينات المعارض لهذه الدولة، والمتضرر الأكبر منها، خلافًا لمواقف بقية السادة الذين كانوا وراء قيامها، ودعموها بقوة لأسباب سنأتي على ذكرها لاحقًا.

فضلاً عن الاستناد إلى ما جاء في هذه الوثائق، فقد تتبعنا ما ورد في المصادر والمؤلفات الحضرمية من شذرات متناثرة عن هذه الدولة؛ لإثراء هذا البحث الذي يعد الأول من نوعه عن دولة ابن مقيص.



ظروف وأسباب نشأة دولة بن مقيص:

سادت حضرموت في القرن الثالث عشر الهجري سلطات المدن المتعددِّة، وغلبة الصراع بينها على الحكم والنفوذ والتسلط، فعمّت الفوضى والفتن، والجنوح إلى البطش والظلم والطغيان، ولم يستطع أحدٌ كبح جماحها وردها إلى صوابها.

وبالنظر إلى الوضع السياسي العام بحضرموت في ذلك القرن نجد أن أبرز مظاهره هو نهاية الدولة الكثيرية الأولى، وبروز سلطة الطوائف اليافعية وغيرها من القبائل الحضرمية، التي تقاسمت النفوذ في مدن حضرموت، بل إن تريم وحدها تقاسمتْها سلطة مثلَّثة، شملت آل غرامة، وكانوا مسيطرين على وسط مدينة تريم ومنافذها الجنوبية، وآل همام، أصحاب حصن الرّناد، وكانوا مسيطرين على حارتي السوق والخليف، وكان بينهم وبين آل غرامة من الإحن والعداوة ما لا يدخل تحت وصف، وآل عبدالقادر، أصحاب حافة النويدرة بتريم، وكان بينهم وبين كل من آل غرامة وآل همام بغضاء ومنافسة لا حدود لها، وفي سيئون آل الضُّبي، وفي تريس بنو النقيب، وفي شبام الموسطة، وبنو بكر في مريمة، وابن يماني التميمي في قَسَم، والعمودي في دوعن... إلخ. أما الساحل الحضرمي فكان تحت سيطرة الكسادي في المكلا ونواحيها، وابن بريك في الشحر ونواحيها "إلا أن الحُكّام بالساحل كانوا على وئام مع الأهالي، وكان حكمهم متميزاً بالاعتدال ورعاية الحقوق، وبالأمن والاطمئنان"(١).

وقد جرت محاولة لإحياء الدولة الكثيرية من قبل جعفر بن علي الكثيري؛ إذ استولى على شبام، سنة ١٢١٨ هجرية، لكنه أخفق في توسيع نفوذه إلى سيئون وتريم وكانتا تحت حكم الطوائف اليافعية، وتوفي سنة ١٢٢٣ هجرية دون أن يحقق طموحاته. وعلى أنقاض حكم أسرة جعفر بن علي الكثيري قام حُكم أسرة آل عيسى بن بدر في شبام سنة ١٢٣٩ هجرية(٢).

وفي عشرينيات ذلك القرن تكرَّرت في حضرموت موجات حملة ابن قملا الوهابية، فأحدثت صدمة في ثوابت المجتمع الحضرمي، وانقسم الحضارم بكل فئاتهم في مواقفهم تجاه هذه الحملة، بين طرف مؤيِّد مناصر لها ومتقبِّل لأفكارها ومشارك في نشرها، وطرف آخر معارض ومقاوم لها ورافض لأفكارها ومبادئها التي نادت بها؛ لأنها تعرَّضت لمعتقدات ترسخت في أذهان الناس، ويصعب تغييرها بالقوة، وهناك طرف ثالث كانت مواقفه حَذِرةً من الحملة وقَبِلَ بها على مضض كأمر واقع(٣).

وقد يكون من أسباب قيام هذه الدويلة هو تخوُّف العلويين من المد السلفيِّ، الذي يقوده الأمير ابن غرامة، الذي كان من أشد أنصار حملة ابن قملا، وعُرف بتشدُّده للدعوة الوهابية (نسبةً للشيخ محمد بن عبدالوهاب)، وفرضها في تريم(٤).

كما نشبت حرب ضروس بين السيد أحمد بن سالم بن أحمد بن الشيخ أبو بكر منصب عينات والمقدم عبدالله بن أحمد بن يماني، في ثلاثينيات القرن الثالث عشر الهجري، من جراء الحصون المسماة بالغرفة، خارج بلدة (قَسَمْ)، واستمرت هذه الحرب نحو سبع سنوات، تضرر الناس منها أيّما ضرر، وجنَّد كل منهما جنودًا من المقاتلة، عادت عليهما وعلى غيرهما بالخسارة والدمار(٥).

وفي ظل تلك الفوضى التي مدَّت أطنابها، ونصبت خيامها في حضرموت الداخل بشكل خاص، ساد التمزق والتشتت والفتن والصراع، وكانت تلك الدويلات والكيانات والشُّلَل تصارع أقدار الحياة وتتنازع على البقاء، ولكل من أولئك الفرقاء يخضع قطاع من الرعايا الحضارم المستضعفين في الأرض، المحرومين من كل حق إنساني أساسي، إلا من حق الموت جوعًا وقهراً، ويحيط بهؤلاء جميعًا قبائل سيبان وبالعُبَيْد والقَثَم والدِّيِّن ونَوَّح، وهؤلاء كانوا يقتتلون فيما بينهم على أتفه الأسباب. ولم يكن العلويون في المنطقة ذوي جاه ونفوذ روحيين فحسب، ولكنهم كانوا أيضًا من الناحية الذاتية الإيجابية أكبر قبيلة في حضرموت من حيث العدد والثقافة والمال، ومتانة العلاقات فيما بينهم، وشدة الغيرة عليها



والتأثير الفكري في مجتمعهم، وكان فيهم السياسيون والدعاة وأرباب الشجاعة والرأي والكرم والصلاح والإصلاح، وبلغ بهم وبالناس الآخرين سوء الحال في وادي حضرموت حَدًّا حَدَا بهم إلى أن يمسكوا بالقشة أَمَلاً في النجاة من سيل الظلم الجارف، الذي كانت أمواجه تتقاذف بهم في كل اتجاه(٦).

ولمواجهة تداعيات تلك الأوضاع المضطربة، وما تعج به من فتن وحروب، وتفشي الظلم والجور والقتل وبالأخص في وادي حضرموت في النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجري جرَّاء تصرفات السلطات اليافعية والكثيرية القائمة حينذاك في تريم وسيئون وشبام ونواحيها، ظهرت دعوات للإصلاح وإقامة العدل، تصدَّرها السادة العلويون الذين يحظَوْنَ بثقة الأطراف المتنازعة؛ لحياديتهم في تلك النزاعات والتجاذبات، وكانت دعواتهم مقبولة، وكلمتهم مسموعة؛ لما لهم من تأثير روحي، ومكانة اجتماعية في إطار النظام التراتبي الاجتماعي في حضرموت، ودورهم المشهود في النشاط الدعوي والتعليمي الواسع، ومكانتهم الدينية والثقافية في حضرموت.

من هو ابن مقيص؟

لابد لنا في البدء أن نتعرف على شخصية مؤسس هذه الدويلة التي لم يطُل بها المقام، وهو الشيخ المقدم عمر بن عبدالله بن مقيص الأحمدي اليافعي، أو التميمي، فهناك تضارب في نسبه بين يافع وتميم. ويرجع ابن عبيد الله في (إدام القوت) نسبه إلى يافع، ويذكر أن مسكنه كان (دحّامة آل قصير)، إلى الشمال من الصومعة(٧)، وبالمثل يرجع ابن هاشم وبامطرف وغيرهما ابن مقيص ليافع(٨)، غير أن ابن عبيد الله يذهب غير ذلك في (بضائع التابوت)؛ حيث يذكر أن ابن مقيص من آل أحمد التميميين، وليس من يافع، وحجته أن بعض المعمِّرين أخبره أن ابن مقيص هو الذي اشترى حصن ابن مطهر أولاً، ولـمَّا تلاشت دولته قام آل حتيش وهم من آل قصير التميميين بالنيابة عنه أو عن ورثته، ويظهر أن شراء عبود بن سالم له كان منهم، ومنه يتأكد القول السابق في أخبار ابن مقيص بأن آل أحمد الذين كان ابن مقيص منهم هم من آل تميم لا من يافع، وإلا فلماذا كان أمره وإرثه إليهم من دون يافع مع كثرتهم ودولتهم!(٩).

وفي قصيدة طويلة للسيد عبدالرحمن بن محمد بن شهاب في مدح ابن مقيص ما يشير إلى نسبه، فقد جاء فيها:

فاسمع كلامي بلطفٍ يا غريب الدار
ذا الأحمدي قد وصل قادم من الأسفار
غاير على أهل النبوة (شيخه المحضار)
عمر إذا ضاقت ادعه معدن البرهان
فقلت ما في كلامك يا أخي تكذيب
هذا محقق لدينا نحسبه تحسيب
الأحمدي في بلدنا يحكم الترتيب
دعوة (علي بن بوبكر) ضياها بان
هذا عمر خو علي لحمدي قد قام
عسى الله به يصلح دعائم الإسلام
تمسي ذياب الفلا ترعى مع لغنام
إذا أتى العدل فاضت رحمة المنان

وبقوله إن شيخه المحضار مما يتأكد به أن ابن مقيص من آل أحمد التميميين، لا اليافعيين، كما جاء عند ابن عبيد الله(١٠). وهناك من يوافقه هذا القول(١١)، وحجته أن المقدم عمر عبدالله بن علي بن مقيص الأحمدي التميمي وليس اليافعي؛ لأن الأحمدي اليافعي من آل القعيطي من يافع ومساكنهم بحضرموت العنين والريضة بمنطقه القطن وليس لهم وجود في مناطق تريم لا قديماً ولا حديثًا.. ثم إن وزيره السيد عبدالله بن أبي بكر عيديد العلوي كان منفيًّا من مدينته تريم ولاجئًا في بلدة السويري، بعد مقتل أخيه سالم على يد يافع، مثله مثل كثير من العلويين الفارِّين من مدينه تريم، إبَّانَ حكم يافع لها، فليس من المعقول أن يساعدوا في بناء دولة يكون أميرها يافعيًا،



فهذا أمر يؤكد لنا نسب ابن مقيص إلى آل أحمد التميميين لا اليافعيين، زيادة على ما تضمَّنَتْه قصيدة السيد أحمد علي بن شهاب الدين من إشارة واضحة إلى نسب ابن مقيص في آل أحمد التميميين.

وأقول: إن نسبه التميمي أقرب إلى الصواب، استناداً إلى ما أفصحت عنه الوثائق التاريخية التي بحوزتنا، بدليل اصطفاف تميم معه في الحرب ضد يافع، فلا يعقل أن تحاربه يافع أو تخذله وتقف ضده إن كان من بني جلدتها، كما سنوضح لاحقًا، ثم إن الوثائق الثلاث لم تذكر اسمه الكامل ولا نسبه، واكتفت بذكر لقبه (ابن مقيص)، ولو كان من يافع لأوردت اسمه ونسبه. ومع ذلك يظل نسبه محصوراً بين يافع وتميم، وقد تظهر في المستقبل وثائق جديدة محفوظة في خزائن البعض تقطع بصحة نسبه، وتنهي الجدل الدائر حوله.

كان ابن مقيص ضمن أسراب المهاجرين من حضرموت إلى جاوا في الجزر الأندونيسية، وهناك كوّن ثروته طوال سنوات غربته التي لا معلومات عنها، وعاد بما جمعه من أموال إلى مسقط رأسه في حضرموت، وعند عودته ساءَهُ وأحزنه ما وقعت عليه عيناه من حال البلاد والعباد؛ إذ رأى الفوضى تعم المناطق، والقبائل متفرقة شذر مذر (متشعطرين)(١٢).

ومن الواضح أنه فور وصوله من مهجره بما أحضره معه من جاوا من أموال لم يكن طموحًا في السلطة والنفوذ أو ساعيًا إلى ذلك، كما أنه لم يكن طرفًا في الصراع الدائر حينها بين قوى النفوذ القبلية، لكنه كان، كما - يصفه ابن هاشم -: "رجلاً ذا نية صالحة وميلٍ للصلاح والخير، وذا شجاعة وعزم، ولديه عصبة لا بأس بها، ولهذا السبب رأى العلويون ومن نحا نحوهم من المجاهدين لتخليص الوطن من ويلاته أن الرجل يملك شيئًا من الجدارة بأن يتصدى لهذا الأمر الجلل بمساعدة أهل الإصلاح من الأمة، الذين ألجأهم ما يلجئ الغريق إلى التشبث بما هو أوهن من بيت العنكبوت"(١٣).

الوثيقة الأولى

التمهيد لقيام دولة بن مقيص:

بالنظر إلى اليأس الذي استقر في نفوس الدعاة إلى الإصلاح من سوء الأوضاع واضطراب الأمن وانتشار الفتن والحروب سعى بعض العلويين، من دعاة الإصلاح، وفي مقدمتهم أحمد بن عمر بن سميط، وعبدالله بن حسين بن طاهر، وحسن بن صالح البحر الجفري، لإنشاء دولة تعيد الحق إلى نصابه، وتبث الاطمئنان في النفوس، وتوطد دعائم الأمن والاستقرار في النفوس في ربوع الوادي، الذي نُكب بحكامه وقبائله، وكان أولئك العلويون، شأنهم شأن الغريق الذي يتشبث



بالقشة رغبةً منه بالنجاة، فوقع اختيار أولئك العاملين لنصرة الحق، على الشيخ المقدم عمر بن عبدالله بن مقيص الأحمدي اليافعي ليكون أميرًا لدولتهم المرجوَّة، بعدما رأوا أنه وجماعته من آل الأحمدي جديرون بمهام النهوض بمهام الدولة الجديدة المنتظرة، فعرضوا عليه الخطوط العريضة للفكرة، فأبدى استعداده للعمل أميرًا يؤيد الشرع الشريف، وأنه سوف يعمل بما يشير عليه أعيان العلويين وعلماؤهم شريطة أن يمدوه بالمال ويعضدوه بنفوذهم(١٤).

وبالفعل عضد العلويون ابن مقيص وأمدوه بما يلزم، وقدّموا له الآراء السديدة، وجمعوا له الأموال الكافية، وقُبَيْل إعلان قيام الدولة رأوا ضرورة وجود قاعدة حربية لهذه الدولة، تكون رمزًا لهيبتها ومنطلقًا لحركاتها العسكرية، وترسانة لمهام الغزو والفتح، فاشتروا له (حصن مُطَهَّر) بوابة تريم(١٥) من آل مطهر اليافعيين، ويقع هذا الحصن في سفح تل صغير في المكان المسمى (حيد قاسم)، جنوب مدينة تريم، ووضعوا فيه مدفعًا بارودیًا توكيدًا منهم لهيبة الدولة المنتظرة، وحينها فكر العلويون في وزير كفء للأمير المرتقب، ووقع الاختيار على عبدالله بن أبي بكر عيديد وزيرًا ومشيرًا على الأمير، يستنير برأيه، ويستضيء بإرشاداته، وتهللت أسارير العلويين باليوم الموعود، والمهدي المنتظر، الذي سوف يملأ الأرض عدلاً بعد أن مُلئت جورًا!(١٦).

مباركة العلويين في رسالة ابن سميط:

مما لا خلاف عليه أن العلويين هم من أقنع ابن مقيص بإقامة دولته، وكانت مباركتهم ومناصرتهم له تفوق التصوُّر، وجاء موقفهم ذلك ضمن مساعيهم الدائبة ومجهوداتهم المتوالية في إقامة وال عدل، يريح الناس مما هم فيه من الفتن، التي لا حد لها ولا نهاية.

ولعله من المناسب الاطلاع على نص رسالة السيد أحمد بن عمر بن سميط العلوي الموجهة إلى السادة العلويين بالجهة الشرقية، يبارك فيها قيام دولة ابن مقيص، ويدعوهم لمؤازرته، نوردها هنا كاملة للوقوف على تلك المساعي العلوية، التي كانت المحفِّز الأول لقيام هذه الدولة(١٧):

بسم الله الرحمن الرحيم وبه الثقة، يخص سادتي الأجلاء الأعلام الحبيب عبدالله بن الحسين بن طاهر والحبيب عبدالله بن أبي بكر عيديد، وكافة السادة من آل أبي علوي حفظهم الله وأدام النفع بهم لنا ولسائر المسلمين، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

نعلمكم أنه وصل خط للفقير من السلطان عمر بن عبدالله بن علي بن مقيص الأحمدي، وعرض بالشأن الذي تصدَّى للقيام به، فالله يبارك له ولنا ولجميع المسلمين في ذلك، ويسخر له على ذلك أعوانًا وبطائن من أهل العلم والفضل والصلاح، إذا نسي ذكَّروه، وإن ذكر أعانوه، ويشرح صدره لقبول نصحهم وإرشادهم، في عافية للجميع، وإن رأيتم يا سادتي أن ترشدوه وتعولوا عليه في أن يقيم علمة خاصة لتعليم مهمات الدِّين التي يلزم الكل تعلمها ولو بالرحلة ولو إلى الصين ويحمل الكل من جهال طبقات الناس على دخولها من شريف وقبيلي وحراق (حراث) وساني وسائل، سواءً كانوا ذكورًا أو إناثًا، ويكون ذلك تلقينًا من غير حضور قلمٍ ولا دواةٍ لما فيهما من المضرة لبعض الناس ممن يقل خوفه من الله كما تفيدون ذلك، ويجعل لذلك ما يرغب أهل الفاقة والحاجة في دخولها للتعلم، كما لا يخفاكم أن ذلك من أجَلّ المهمات، ومن أقوى داعي لحصول النفحات، ورسخوها في الجهات المشار إلى ذلك بحديث: إن لربكم في أيام دهركم نفحات ألاَ فتعرَّضُوا لها، وهذا إن شاء الله من التعرض ولا ترون علينا، فالحاضر يرى ما لا يرى الغائب.

ومن عجب إهداء تمرٍ لخيبر... وتعليم زيدٍ بعض علم الفرائض

والسلام وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

من المستمد أحمد بن عمر بن زيد بن سميط... عفا الله عنه



قيام الدولة وهيبتها لحظة إعلانها:

ينفرد ابن عبيد الله بالقول إنها قامت سنة ١٢٤٢ هجرية[١٨]، وهذا هو الأقرب إلى الصواب حسبما تؤكده الوثائق التاريخية الجديدة التي حصلنا عليها، والتي تبيَّن أنها قد كانت قائمة قبل ذلك التاريخ المتعارف عليه لدى غالبية المؤرخين.

ومن بين تلك الوثائق الأكثر أهمية، الرسالة المؤرخة في ١٥ صفر سنة ١٢٤٣ هجرية[١٩]؛ لأنها تصف هيبة الدولة الوليدة السائدة حينها، بما يعني أنها كانت قائمة قبل التاريخ الشائع والمتعارف عليه في بعض المراجع المكتوبة والمنشورة، أي قبل ١٥ ربيع الآخر من ذلك العام ١٢٤٣هـ، بفترة زمنية لا بأس بها، مكَّنتْها من فرض هيبتها وتعزيز نفوذها، حتى حظيت بقبول واسع، إما عن رهبة أو عن رغبة، ولا سيما أنها جاءت كالمنقذ للمِّ أشتات القبائل المتفرقة والمتنافرة والمتحاربة، فطغت هيبتُها وانتشرت في محيطها فورَ الإعلان عنها، وتسابق الجميع لإعلان الولاء إلى مقام (السلطان ابن مقيص) كما تصفه الوثيقة، وتذكر تَسَارُعَ وصول كل قوى النفوذ حينها من دويلات المدن المتنافرة، مثل آل تميم، وابن عوض غرامة، وابن عبدالقادر، وابن همام، وابن متاش، والزغلدي؛ خوفًا وخشيةً من عواقب تأخرهم في الوصول إلى الحاكم الجديد المدعوم من العلويين، وحتى لا يُسَاء فَهْم تأخرهم عن تأييدها فتكون الدولة الوليدة ضدَّهم (عليهم)، ولهذا تسابقوا للوصول إلى ابن مقيص بعد لبعوس، أي بعد ابن عوض غرامة، وقدَّموا له رهائن (محابيس)، وطرحوا (الرضا) كعربون للولاء والتبعية. وهذا ما كشفتْ عنه بوضوح الوثيقة التاريخية؛ إذ ورد فيها بالنص:

"...وبعد وصول بن مقيص من جاوة ولحق القبايل مشعطرين وقام في مقام الدولة، وحبسوا له آل تميم الجميع، وبعد لبعوس وقع بينهم سباق إلى عند السلطان بن مقيص واختافوا على أن كلّن يقول السلطنة عليَّ، واندر[٢٠] بن عوض غرامة وحبس وطرح الرضا، وبعد عَقَّبوا بن عبدالقادر وبن همام وبن متاش وحبسوا له وطرحوا له أربعه محابيس من بن غرامة وبن همام وبن عبدالقادر[٢١] وبن متاش[٢٢] والزغلدي[٢٣] وترجَّو الوطا له والباطل الذي با يدهم".

الوثيقة الثانية

ومن أساليب فرض هيبة الدولة في المناطق التي خضعت وأعلنت ولاءها له، تذكر الوثيقة، أنه أبقى على ممثِّلين له (نَقَّالة عندهم لشاكي ومشتكي) وحدد مهمتهم بتلقي الشكاوى من الناس ونقلها له عن أية مظالم تلحقهم، وأقام الشريعة وهي من المطالب الرئيسة التي وضعها العلويون عليه عند إعلان دولته.



ومن نتائج هيبة الدولة أن ساد الأمان بعد خوف، والعدل بعد ظلم، وهُيِّئت سبلُ الاستقرار في جهة الحدر، وهي المناطق الواقعة شرقي مديرية تريم، التي عم فيها الأمان بعد أن سادتها الفوضى "رَحمةً من بعد الشتات"، وأصبح المرء يسير بأمان إلى المحجلة، وهي إحدى قرى مدينة القَطْن، من فرط محولة محدر إلى الشق البحري، دون أن يعترضه أحد أو يسأله من أين جئت، بعد أن عانوا كثيراً من الرعب والخوف من (بعد الباطل الذي قد شافوه)؛ إذ لم يكن أحد يقدر أن يؤدي صلواته في المسجد.

وعن فرحة الناس بقدوم ابن مقيص من جاوا وإعلان سلطنته بعد أن ضاق بهم الحال، يشير السيد عبدالله بن عمر بن يحيى في مكاتبة له يقول: «والجهة لم يقيض الله لها سلطان، يدفع عنها كل شيطان، فهي حالكة خاربة، والهجرة منها واجبة، والناس فرحون بالرجل الخارج من الجهة الجاوية، إذا كان صالح النية، وله همة علية، ومستبد بنفسه، بكثرة العبيد والمدافع الكبار القوية، تاركًا الاستهانة بقبائل الجهة بالكلية، ولا يعطيهم إلا ضرب السيوف والبنادق الروسية، منفذ للأحكام الشرعية المحمدية»[٢٤].

بل إن البعض عدَّ ظهور ابن مقيص وسلطنته، وطاعة الناس له بالاختيار، وانقيادهم بلا تكليف ولا إجبار إغاثة من الله وفرج منه بعد الشدة، كما جاء في كتاب من الشيخ عمر بن عبدالكريم بن عبد الرسول العطار في شهر محرم ١٢٤٣ هجرية، بعثه للسيد محمد بن عيدروس بن عبد الله بن أحمد الحبشي، قال فيه[٢٥]: "وما ذكرتم من الفرج بعد الشدة، بإظهار الله بن مقيص وسلطنته، وطاعة الناس له بالاختيار وانقيادهم بلا تكليف ولا إجبار، فهذه إغاثة من الله".

موقف سادة عينات وبعض القبائل:

عرفنا سلفًا أن السادة العلويين بمكانتهم الروحية وبتأثيرهم ونفوذهم القوي كانوا وراء قيام دولة ابن مقيص والداعمين لها؛ أملاً في إقامة العدل والانقياد لسلطتهم الروحية، لكن الوثائق التاريخية التي بحوزتنا تكشف لنا أن بعض السادة لم يكونوا متحمِّسين لسلطنة ابن مقيص، بل غير فرحين لقيامها، ونقصد بذلك سادة عينات، الذين لم يباركوا قيام دولة ابن مقيص، بل كانوا فارِّين منها، ولم يقبلوا بسلطنتها عليهم إلاَّ على مضض وبالإكراه؛ لأنها قاسمتهم بالإجبار بأخذ نصف موارد مطبخهم، والمقصود بذلك النذور والهبات والموارد التي يحصلون عليها من أتباعهم، وخاصة من يافع، وهذا ما يتضح مما جاء في رسالة الجحوشي وابن شهابي إلى فقهاء بني بكر في يافع، المؤرخة منتصف شهر صفر سنة ١٢٤٣ هجرية، ويعنون بسادتنا الحبايب، سادة يافع مناصب عينات؛ إذ ورد بالنّص: "... **ومن بعد سادتنا الحبايب كانوا فارين من السلطنة ولا هم فارحين لذلك، وبعد أن سار عليهم جعث من لبعوس من بن عوض غرامة قبض الشابه محمد باعبده ويافع متشعطرة في بعضهم البعض وبعد ان الحبايب لقطوا لهم من بعد قبض محمد باعبده وخسروه خمسمئة قرش غرامة والـ(....) على الحبايب من يافع والعثث من يافع، وبعد أنهم انطروا واجتمل شورهم على أنهم يسلطنوا بن مقيص على أهل بوبكر بن سالم اجبار وعلى ما جاتهم أنصاف نصف لمطبخ الحبيب أبوبكر ونصف للسلطان من بعد الرتبة الذي في عينات ستة أنفار وقامت دولة ما نقدر صفها لكم**"[٢٦].

نعرف من نص هذه الرسالة تردد يافع وحامية سيئون (رُتبة سيئون) وبعض القبائل في القبول بسلطنة ابن مقيص مثل العامري وباجري، بدليل وصول العامري بالأمان (بالوجه) إلى رتبة سيئون، وطلبه من الرُتبة أنهم تُبعة بعضهم لبعض، حتى أنهم لم يلبّوا طلب ابن مقيص من الرُتبة بمقابلته (القَبَل،) ولم يقابله أحدٌ منهم، بل كانت وجهتهم إلى عينات كعادتهم، تعالوا نتعرف على بقية تفاصيل الرسالة الخاصة بهذا الموضوع؛ إذ جاء فيها بالنص:



"كذلك أخبار يافع والقبايل الجميع رتبة سيئون زيان هم والعامري وباجري من بعد سلطنة بن مقيص في الوجه وصل العامري إلى رتبة سيئون وفتح على الرتبة أن نحن تبعة بعضنا البعض ومن شان بن مقيص سار منه كتاب للرتبة وقعت لنا همة إلى الحدر وطلب قَبَلْ ولا حدن (حدًا) قابل من الرتبة، وبعد أنه سارت لنا همة إلى عينات أنا يا عبد الحبيب بن صالح وطلب قَبَلْنَا وقابلته وفتح علينا أن بينه وبين الرتبة حلف سابق وقَصَدْنَا مقره على الحلقة لتقروب الخير وإبعاد الشر ولا مرادنا سلطنة في جهة أرضهم ولا محابس منهم دون تكافي الشر منهم إن بقوه تبعة وإن بقو معاه والرتبة مشخين منصورين وكلّن يخب لهم والرتبة معاد حداً عاقل منهم والسعد قايم، ونحن فتحنا على الرتبة ولا بعد شي كلام قام، كذلك بن عيسى بن بدر وصلت منه خطوط في طلب حلف ومنافعته في الدنيا والرتبة في شبام وتقروب للخير ومارين السعد إن الدول في حضرموت تطلب المنفعة منهم والصافيه منهم ليس عليهم دولة دوين الصيانه، كذلك أخبار رتبة سيئون بعضهم البعض حال الكتاب ساكنين في عرض سيدنا المالك أبوبكر ماشي خالف مستمرين".

---

* أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية جامعة عدن.

الهوامش:

١. المعلم عبدالحق، محمد عبدالقادر بامطرف، دار الهمداني للنشر والتوزيع عدن، ط٢، ١٩٨٣، ص ١٢٧، ١٢٨.

٢. في سبيل الحكم، محمد عبدالقادر بامطرف، دار الهمداني للطباعة والنشر، عدن، ط٢، ١٩٨٣م، ص١٤.

٣. انظر: حملة بن قملا الوهابية على حضرموت، د. علي صالح الخلاقي، مطابع وحدين للأوفست- المكلا، ط١، ٢٠٢١م، ص ٤٩ - ٧٤.

٤. انظر: يافع في حضرموت، المجلد الثامن من الموسوعة اليافعية، تأليف طارق بن سالم سعد الموسطي وآخرون، دار الوفاق، ط١، ٢٠١٥م، ٦٣/ ٨.

٥. تاريخ الدولة الكثيرية، محمد بن هاشم، تريم للدراسات والنشر، ط٢٠٠٢،١م، ص١٨٢.

٦. انظر: المعلم عبدالحق، ص١٢٧، ١٢٨، ١٣٠، ١٢٩.

٧. إدام القوت في ذكر بلدان حضرموت، تأليف السيد عبدالرحمن بن عبيدالله السقاف، عني به تاريخياً: محمد أبوبكر عبدالله باذيب، عني به أدبياً: محمد مصطفى الخطيب، دار المنهاج - بيروت، ط١، ٢٠٠٥م، ص ٨٤٥.

٨. ينظر: تاريخ الدولة الكثيرية، ص ١٩١. المختصر في تاريخ حضرموت، محمد عبدالقادر بامطرف، دار حضرموت للدراسات والنشر، ط١، ٢٠٠١م، ص١٠٤.

٩. بضائع التابوت في نتف من تاريخ حضرموت، السيد عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف (مخطوط في ثلاثة أجزاء): ٣/ ٣.

١٠. بضائع التابوت: ٢/ ٢٧٨، ٢٧٩.

١١. تاريخ حضرموت، مراد صالح عوض بن مرساف التميمي الظنّي، مكتبة تميم الحديثة، ط١، ٢٠١٧م: ص٨٩- ٩٠.

١٢. انظر صورة الوثيقة رقم (١).

١٣. تاريخ الدولة الكثيرية، ص١٩١.

١٤. المختصر في تاريخ حضرموت، ص ١٠٤، ١٠٥.

١٥. الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي، سعيد عوض باوزير، دار الطباعة الحديثة، مصر، ص٢٠١.

١٦. انظر: المعلم عبدالحق، ص١٣١.

١٧. تاريخ الدولة الكثيرية، ص ١٩٢، ١٩٣.

١٨. انظر: إدام القوت، ص٨٤٦.

١٩. انظر صورة الوثيقة رقم(١).

٢٠. اندر: بعث أو أرسل.

٢١. بن غرامة، وبن عبد القادر، وبن همام كانوا يحكمون تريم التي توزعت بينهم، فآل غرامة كانت لهم رئاسة عامة، ثم لم يتبق لهم إلا الحوطة والسحيل والرضيمة، وآل همام ولهم الخليف وعيديد، وآل عبد القادر ولهم النويدرة [بضائع التابوت: ج٢، ص ١٧٢].

٢٢. من الحاميات اليافعية القديمة بحضرموت، كان تواجدهم في مدينة تريم، ولهم حصن مشهور فيها لا زالت آثاره باقية، يُعرف حالياً باسم حصن (نافي)، في الشِّعب المسمى باسمهم في جنوب غرب دمون [يافع في حضرموت: ٨/ ٤٠٦].

٢٣. كانت لهم حامية صغيرة في شرق تريم، وكان عوض بن محمد الزغلدي قائماً بها، وما زالت البقعة التي كان بها تسمى حصن عوض، وهي الآن منطقة كبيرة من مناطق تريم بذات الاسم، وآل الزغلدي لم يعد لهم وجود في تريم [يافع في حضرموت، ٨/ ٧٢].

٢٤. بضائع التابوت: ٢/ ٢٧٦.

٢٥. بضائع التابوت: ٢/ ٢٧٧.

٢٦. انظر صورة الوثيقة رقم (١).

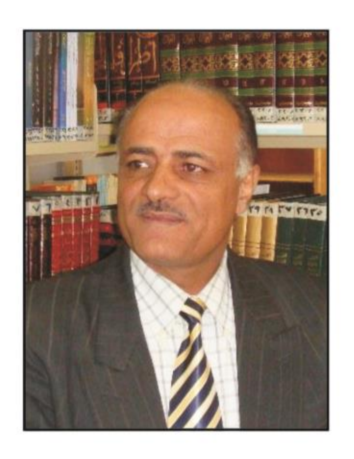


دولة ابن مُقَيْص في حضرموت

(في مصادر ووثائق تاريخية تُنشر لأول مرة)

(٢ – ٢)





أ.د. علي صالح الخلاقي*

سوء العلاقة ونشوب الحرب بين يافع وابن مقيص:

لم تستمر هيبة دولة ابن مقيص وقوتها طويلاً التي هوّل وبالغ فيها العلويون حال ظهورها، بل إنها تعثرت منذ يومها الأول لقيامها، وحاول القوم جهدهم أن يدفعوا بأميرها المستجد إلى الأمام، إلى الغزو، إلى الفتح، إلى قهر الظالمين، إلى إيقاف الباطل عند حده، إلى رفع لواء العدل... إلخ. ولكن مجهوداتهم ذهبت سدى. ولسنا ندري السبب الحقيقي خلف هذا الإحجام الفاضح، ولكن التاريخ يذكر أن هذا التعثر وذلك الإحجام كان بسبب ما حل بقلب المقدم من التردد والاضطراب، وما حل بقلوب قبيلته من التمرد والخور(٢٧).

وفي ظل ذلك التردد والاضطراب ساءت علاقة ابن مقيص مع يافع، وبشكل خاص مع لبعوس المسيطرين على تريم، وتبينّ أن وصولهم إليه منذ البدء حال إعلان دولته لم يكن برغبة منهم أو طواعية، إذ وصل إليهم "أنّ عمر بن مقيص استولى على سلطنة تريم، وأن يافع أذعنت له بالطاعة، وألقت إليه أزِمَّة الرياسة عن طوع واختيار". بل الأقرب إلى الصواب أنهم قبلوا به كأمر واقع في عز قوته، التي هوَّل أمرَها وبالغ فيها العلويون حال ظهوره، اتِّقَاءً لشره وتجنب عداوته "وطمعًا في الراحة على يده من المشاغبات الداخلية، مع شيء من خشية الموقع الذي جاء به، وما كان ليصعب على يافع الانقياد لواحد



من غير جلدتها، مع هذه الدواعي بعد انقيادها، ومع قوتها، ومنعتها لأمراء آل كثير... وإنما ضحكت يافع على ابن مقيص، كما ضحك آل عبدالله وآل كثير على الشاووش بدر حتى أفقروه، وركبوا ظهره حتى أدبروه"(٢٨).

وبمرور الأيام أخذت هذه الهيبة تتقلص تدريجيًا وتقل، وربما كان ذلك لاستنفاذ موارد ابن مقيص المالية، التي كانت وراء (سلطنته)، كما بدأت مهابته العسكرية التي كان يخشاها الناس في التلاشي والاضمحلال بعد أن أقدم على الرمي من المدفع الذي كان معه دون أن يؤثر شيئًا، وبدأ يفقد سيطرته على الأمور، الأمر الذي دفع بابن غرامة، صاحب تريم، أن يرسل أحد السماسرة يجس له نبض ابن مقيص، فسار إليه، وناداه باسم السلطنة فخفّ للغاية إلى باب الحصن، فقال الدلاّل في نفسه: هذه الأولّه، ثم قال للدّلال تقدم في الدرج لِمَا سرّه من مبالغته في مدحه، وقال في نفسه: وذه الثانيه، ثم أدخله إلى منزله الخاص، وزوجته من وراء الستر، حُبًّا في أن تسمع ما يجازف به الدّلال من الثناء عليه، ولماً عاد إلى ابن غرامة قال له: ما قدّامك حَدْ، فلم يكن منه إلا بعث عبيده إليه فاستولوا على جميع ما كان معه(٢٩).

وما يؤكد سوء العلاقة وتدهورها بين لبعوس وبن مقيص وصولاً إلى نشوب حرب بينهما، ما جاء في الوثيقة المؤرخة ١٦ شعبان ١٢٤٣ هجرية؛ إذ ورد فيها بالنص(٣٠): "وإن سألتم عن أخبار حضرموت لبعوس تفاسلوا هم وبن مقيص، وجاء شور لبعوس الجميع واحد وبن همام، وحصل حرب هم وبن مقيص وآل تميم، وحال صدرت وآل تميم في دمون مكان بن سلمة وفي الرملة، ويافع قابضين تريم وخَلاَها، وبنوا أربعة أكوات لبعوس، وحصل حرب بينهم، وكسروا آل تميم ومن معهم، والذي قتلوا من آل تميم أربعة، وواحد من آل كثير عند بن مقيص، وعبد علي بن مقيص وجملة أفعال، وأصحابنا سلَم، وكذلك نفذوا البعوس في كل عرب، ودخلوا



الوثيقة الثالثة

سيئون، وطلبوا رجال، ونفذوا مقدار سبعين نفر من أهل سيئون، ونفذوا إلى القطن بغوا رجال وآل عبدالله والعوامر مع يافع ويافع شور واحد الجميع والخصم إن شاء الله مكسور".

تفيد الوثيقة حسب النص أعلاه ما يأتي:

- أن لبعوس وابن مقيص اختلفوا (تفاسلوا)، ووحَّد هذا الاختلاف لبعوس الجميع، ابن غرامة، وابن عبدالقادر، وابن متاش، ومعهم ابن همام في الرأي، والموقف ضد ابن مقيص ومعه آل تميم.
- أن هذا الاختلاف قاد إلى نشوب حرب بين الطرفين، الطرف الأول: يافع، والطرف الآخر ابن مقيص وآل تميم.
- أن آل تميم ظلوا في دمون مكان ابن سلمة وفي الرملة، فيما كانت يافع مسيطرين على تريم وضواحيها (خَلاَها).
- أنَّ يافع لتأمين تريم وتحصينها شيَّدت أربعة أكوات كنقاط حراسة ومراقبة متقدمة، لمواجهة أي اختراقات وكسرها للحيلولة دون تقدم الطرف الآخر.
- حدثت الحرب بين الطرفين، وكُسر فيها آل تميم ومن معهم، وقُتل خلال الاشتباكات أربعة من آل تميم، وشخص من آل كثير ممن عند ابن مقيص، وعبد علي ابن مقيص، وجملة أفعال، وهناك خسائر مادية أخرى من سلاح وعتاد ونحوه.



– حسب الرسالة لم يُصب أحدٌ بأذى من يافع، وهو ما يقصده المُرسل بقوله: (واصحابنا سَلَم).

– وضعت يافع خطة انتشار بإرسال سبعين شخصًا من سيئون إلى القَطْن؛ لمواجهة أي طارئ هناك، بالتنسيق والتشاور مع حلفائهم آل عبد الله والعوامر، الذين اجتمع شورهم على رأي واحد لمواجهة خصمهم وكسره، كما تمنى ذلك صاحب الرسالة.

وهناك أخبار خاصة وعامة في بقية الرسالة، لكن ما يهمنا منها إشارتها إلى موقف حاكم المكلا حينها وهو النقيب عبد الرب بن صلاح الكسادي، الذي ساءته أخبار سلطنة ابن مقيص، وأنه (متعور)(٣١)، أي: مستنكر ما حدث لأنه – كما جاء في الرسالة – عمل وقدم الكثير، ولا هو طارح قليل وحضرموت اليوم خيره جم والخصم ضعيف.

رسالة عينات وفرحة النصر على ابن مقيص:

سبق أن عرفنا أن سادة عينات لم يكونوا متحمسين لسلطنة ابن مقيص، بل غير راغبين أو فرحين لقيامها؛ لأنهم أكثر المتضررين من ظهورها، على عكس بقية السادة العلويين، الذين كانوا الداعمين والمؤازرين لابن مقيص؛ ليكون حاكماً عادلاً منصاعًا لهم، يعمل بما يشير عليه أعيان العلويين وعلماؤهم. وما أغاض سادة عينات أكثر فقدانهم لنصف موارد مطبخهم، من النذور والهبات بالإكراه لصالح سلطنة بن مقيص، واهتزاز مكانتهم الروحية، ووضعهم في موقف لا يحسدون عليه أمام أتباعهم، ولذلك كانوا فارين منها وغير فرحين بها.

ومع اقتراب العد التنازلي لأفول نجم سلطنة ابن مقيص تنفَّس سادة عينات الصعداء، وأزيح كابوس جثم على أنفاسهم، خاصة بعد أن توحَّدت يافع مع قبائل حضرمية أخرى ضد ابن مقيص وآل تميم، ودخول الطرفين في حرب، أضعفت ابن مقيص وألحقت هزيمة بأتباعه من آل تميم، وعودة تريم إلى قبضة يافع، والأهم بالنسبة لسادة عينات هو عودة توافد يافع مجدداً إلى حوطة عينات؛ إذ جاء تطور الأحداث لصالحهم، ولعودة مكانتهم الروحية، وكانوا أكثر ابتهاجًا وفرحًا من غيرهم، كما تفصح عن ذلك الرسالة المهمة لصاحب عينات التي أرسلها إلى بني بكر – يافع إلى كل من: الشيخ الفقيه عبد الحبيب بن أحمد حيدر والشيخ عبدالله بن عوض دينيش وكافة المحبين بني بكر والمحب محمد صالح، وهي بدون تاريخ، ومختومة برسم (الواثق بالرب العالم أبوبكر بن أحمد بن سالم)(٣٢)، وهو أبو بكر بن أحمد بن سالم بن أحمد بن عليّ بن أحمد بن عليّ بن سالم بن أحمد بن الحسين بن أبي بكر بن سالم، خلف والده سنة ١٢٤٢هـ، وتوفي سنة ١٢٦١هـ.

الوثيقة الرابعة

الرسالة مكتوبة بورقة مستطيلة وبصفحتين أمامية وخلفية، وأصابها تلف في نهاية صفحتها الأمامية أفقدها بعض الكلمات، وقد كُتبت بخط واضح، لعل كاتبها الفقيه عبد الله بن أحمد بن عبدالرحمن باوزير الذي خص المُرسَل إليهم بالسلام في نهايتها، مع سالم شقيق المنصب، ونجله سقاف. ولأن الرسالة طويلة، وتشمل عبارات التبجيل، ودعاء مسجوع، وأخبار متنوعة أخرى منها، خبر حصول الرخاء بخيره العميم، واستلامه ١٢ قرشًا منهم بيد المحب الخلاصة حيدر عبدالله، وخبر مخرج



سلاطين يافع، وهي غزوات خارج يافع، ربما مع الزيود، وخبر مرض صادق بن هادي ووفاته في غيل ابن يمين قبل وصوله إلى بني بكر وترحمه كثيراً عليه لأنه من يقوم بجمع النذور والأموال للمنصب، وخبر (عرضته)، أي الصُّلح أو الهدنة، على المحبين الجميع، وفرحهم بها، مع التهويل من نتائجها إيجاباً وسلباً (فمن قبلَهَا سَعُد وظفر ونال كل مطلوب ومقصود ومن خالف كلامنا فيا ويله منا ويخسر ويندم ولا يبلغ لا مطلوب ولا مقصود)، والتخويف ممن يخالف كلامه وكأنما يخالف القدرة الإلهية (وكلامنا ما يخرج من لساننا إلاَّ وقد أخرجته قدرة الله ربنا، ويا ويل من خالف القدرة، فالله الله عرّفوا المحبين في الإخلاص لنا والاعتماد على كلامنا تنالوا جبرنا ورضانا ودعانا جمَّلكم الله دنيا وآخرة آمين).

وما يهمنا من هذه الوثيقة المهمة ما له صلة بموضوع بحثنا فقط، حيث ورد فيها بالنص(٣٣):

"أخبار جهتنا حسب ما قد بلغكم مقام بن مقيص وطابقنا جبراً للبعوس لسكون البلاد وأمان العباد وأعطينا الوقت حكمه حال الساعة، ومن بعد صار الخلاف بين لبعوس [تلف في الأصل...] وقبايل فلما رأوا ذلك لبعوس علموا أن ذلك بقدرة الله ربنا وسببه سخطنا وغضبنا فأخلصوا معنا بالنية الخالصة [......] ونصرهم الله على بن مقيص وقبايله، ومن بعد أعطاه [......]طلبوا رسول [......] وأخرج دفعة على الجهة فشق علينا [......] ولبعوس وشكينا عليهم عطال الجهة بالدفاع والخراج فشلوا لنا كل وافية إلاَّ علي أحمد المساوى خالفت نيته فينا وتبعوه أهل الشرف ورجعنا إلى عينات وحال وصلنا إلى عينات خلع السلطنة بن مقيص، ووردوا جميع يافع موسطي وضُبَي وبعسي إلى عينات زائرين وطالبين الدعاء والرضا وحصل الأنس الكبير والجبر الكثير دون الشرفي. ومن بعد قامت الفتنة عند بن مقيص وبن قرموص وبالقصير شق، وعصبوا المحب علي أحمد المساوى

تكمن أهمية هذا البحث في كونه يقدم معلومات وحقائق تاريخية جديدة، استناداً إلى وثائق تاريخية أصيلة، تنشر لأول مرة، تعود إلى زمن الحدث، تكشف تفاصيل مجهولة، وتميط اللثام عن كثير من الغموض واللبس الذي ساد عن دولة ابن مقيص - حضرموت، ذات العُمر القصير

معهم والآخرين بن شملان وبن محمد وبن زيدان شق، ولما علموا أن المحب علي بن أحمد المساوى مع بن مقيص طلعوا وعصبوا البعوس وشق على رتبة سيئون مسير علي أحمد المساوى إلى عند بن مقيص وجاب معه حملة من آل كثير وقبائل إلى عند بن مقيص وخرجوا البعوس إلى الخلا ووقعت حروبات وقتل المحب علي أحمد المساوى وناس من آل كثير وعبيد ومصاويب من الجانبين والمحب علي أحمد أجلا رجال ونقض على يافع جم جم، ونحن اشتغلنا عليه إلى غايه لحيث نقض يافع علينا فعسى الله يهديهم ويصلح نياتهم ويجمع كلمتهم ولا يفرق بينهم بحق طه وياسين وجاه السلف المكين آمين.. وحال الرقم والفتن قائمة هذا مما لدينا".

ورغم أن الرسالة عامة وشاملة لأخبار عدة، لكن أهميتها تكمن في أن مصدرها أرفع مقام في عينات، المنصب نفسه حينها الحبيب أبوبكر بن أحمد بن سالم، وأن الجزء المهم والرئيس فيها كشف لنا بوضوح ما كان غامضاً من مواقف عينات إزاء ابن مقيص منذ بدء ظهوره على مسرح الأحداث وتأسيس دولته، وصولاً إلى فرحتهم الطاغية بتطورات تلك الأحداث المتسارعة التي سحبت البساط منه وأضعفته



تدريجيًا، وأعادت لهم مكانتهم وتأثيرهم لدى أتباعهم. وهو ما نوضحه فيما يأتي:

– أوضحت الرسالة أن عينات لم تكن مرحبة ولا مباركة لدولة ابن مقيص، وأن موقفها إنَّما جاء مطابقًا وجبرًا لموقف لبعوس – يافع، وعلى رأسها حاكم تريم القوي بن غرامة وغيره، ولاسيما أن معاناتهم منه لم تُنسَ حينما غدر بهم وسلّمهم لحملة ابن قملا، التي عانوا منها الأمرَّيْنِ، ولم يريدوا أن يتكرَّر ذلك معهم في الموقف من ابن مقيص، فقبلوا بالأمر الواقع، طبقًا لموقف ابن غرامة ولبعوس، بغية (سكون البلاد وأمان العباد)، وتريثوا في الإفصاح عن مواقفهم المعارضة، وأعطوا الوقت حُكْمَهُ حال الساعة.

– أَسْعَدَ عينات وسرَّها الخلاف الذي صار بين لبعوس ومن معهم وبين ابن مقيص ومن معه من القبائل، وازدادت بهجة صاحب عينات وفرحته بما تحقق من نصر (على ابن مقيص وقبائله)، وأرجع سبب ذلك كما جاء في رسالته إلى أنه (لما رأوا ذلك لبعوس علموا أن ذلك بقدرة الله ربنا، وسببه سخطنا وغضبنا، فأخلصوا معنا بالنية الخالصة... ونصرهم الله على بن مقيص وقبايله)، وفي هذا القول تهويل ومغالاة لدى أنصارهم بتأثيرهم الروحي، ولو كان لهم مثل هذا التأثير لدفعوا به الضرر الذي لحقهم من ابن مقيص في حينه.

– نفهم من نص الرسالة – رغم ما أصابها من تلف أفقدها بعض الكلمات – أن هناك خروجًا كان على جهة عينات وخللاً (عطال) بخطوط الدفاع والخراج، فشق الأمر عليهم فاتجهوا بالشكوى إلى لبعوس وتجاوبوا معهم، وهذا ما يُفهَم من قوله: "وشكينا عليهم عطال الجهة بالدفاع والخراج فشَلَّوا لنا كل وافية". واستثنى من ذلك علي أحمد المساوى الذي خالفت نيته فيهم، وتبعوه أهل الشرف، وهم من آل الضُبَي.

– بعد إصلاح الخلل في خطوط الدفاع تم رجوع صاحب عينات، ويبدو أنه كان خارجها، ولا نعرف أين كان بالضبط، هل في سيئون أو القطن بين أنصاره، ولم يعُد إلا بعد أن تم تأمينها،

ومع اقتراب العد التنازلي لأفول نجم سلطنة ابن مقيص تنفَّس سادة عينات الصعداء، وأزيح كابوس جثم على أنفاسهم، خاصة بعد أن توحَّدت يافع مع قبائل حضرمية أخرى ضد ابن مقيص وآل تميم، ودخول الطرفين في حرب أضعفت ابن مقيص وألحقت هزيمة بأتباعه من آل تميم، وعودة تريم إلى قبضة يافع

وتزامن رجوعه مع خلع سلطنة ابن مقيص، بدليل قوله: "ورجعنا إلى عينات، وحال وصلنا إلى عينات خلع السلطنة بن مقيص".

– ما أفرح صاحب عينات وسرّه أكثر هو توافد يافع جميعًا إليه طلبًا للدعاء والرضا، (ووردوا جميع يافع موسطي وضُبَي وبعسي إلى عينات زائرين وطالبين الدعاء والرضا وحصل الأنس الكبير والجبر الكثير) واستُثني الشرفي، الذي لحق بالمساوى مع ابن مقيص.

– لم تنتهِ الأحداث أو تتوقف بما تحقق من نصر على ابن مقيص وقبائله، ولا بخبر خلع سلطنة ابن مقيص، بدليل قوله: "إنها قامت فتنة من بَعد، كان ابن مقيص وابن قرموص وبالقصير طرف أو جهة (شق) فيها، واستقطبوا معهم علي أحمد المساوى. والآخرين ابن شملان وابن محمد وابن زيدان طرف آخر (شق)، ولما علموا أن علي بن أحمد المساوى مع ابن مقيص طلعوا وعصَّبوا البعوس، وشق على رتبة سيئون مسير علي أحمد المساوى إلى عند ابن مقيص، وجاء معه بحملة من آل كثير وقبائل إلى عند ابن مقيص، وخرجوا لبعوس إلى الخلا، وحدثت اشتباكات (حروبات)، قُتل فيها علي أحمد المساوى وآخرون من آل كثير وعبيد، وجرحى (مصاويب) من الجانبين".



- نعرف من الرسالة تأسف صاحب عينات على مقتل علي أحمد مساوى، بدليل وصفه بالمحب، لكنه نقض على يافع كثيراً (جم جم) واشتغل عليه المنصب إلى غاية نقض يافع عليه.

- ما تزال الفتن قائمة حتى كتابة الرسالة.

- ويختتم الرسالة بالدعاء التقليدي المسجوع، الذي يقدس فيه مؤسس عينات سلفه الجد، الشيخ أبوبكر بن سالم، معدِّداً صفاته وكراماته المزعومة، بقوله: "هذا مما لدينا والدعاء لكم مبذول عند الصلوات والحضرات والزيارات، عند ضريح فخر الوجود، ومهد كل موجود، غوث الملا، ومدمر المخالفين الأعداء، الذي أعطاه الله النصر حيًا وميتًا، الشيخ الأكبر، والكبريت الأحمر، والكنز المدخر، ذي النور الساطع، والفخر الجامع، والسيف القاطع، والرمح القامع، صاحب الكرامات الخارقات، والأنوار الساطعات، والشموس الشارقات، والبوارق اللامعات، الشيخ أبوبكر بن الشيخ سالم، والحبيب الحسين وأولادهم، أهل الكثيب الأحمر، والثريب الأخضر في عينات، حيث الأرض منها النور فاض، وبحرها ليس يختاض، خلوا الاعتراض، يا أصحابنا كونوا أنفاض، سيروا بانتهاض، زوروا بلاد الحبايب، يا مولى الكثيب ترابها طب لجراح، منه المسك فاح، من شم هاتيك الأرياح، يغنم واستراح، مَرِّغ بها الخد يا صاح، إن رمت النجاح، وزُر قببها بترتيب، يا مولى الكثيب، بالعافية الضافية، والنعمة الدايمة، والكلمة العالية، والرتبة السامية، والحفظ والحماية، والذرية الكثيرة القوية، الصالحة، والجهالة دنيا وآخرة، وإنزال الخيرات والبركات وعموم الرحمات، وصلاح الحالات، حماكم الله خالق السموات والأرض".

نهاية دولة ابن مقيص:

وهكذا تجمعت عوامل متعددة أدت إلى اضمحلال دولة ابن مقيص ونهايتها، فلم تستقم بالكاد على أرجلها، وتفرض هيمنتها بقوة السلاح والمال، ودعم العلويين وإسنادهم، حتى بدأ



الوثيقة الخامسة

نجمها بالأفول التدريجي، وحاول العلويون جهدهم أن يدفعوا بسلطانها إلى الأمام ويحملوه على الفتح والغزو، ولكن مجهوداتهم ذهبت سُدًى لِـمَا حل بقلب المقدم من التردد والاضطراب، وبقلوب قبيلته من التمرد والخور، وتحطّمت آمال العلويين، ومن كان يشاطرهم تلك الآمال من الحضارم، في استتباب الأمن ونشر العدل بين الناس على يد ابن مقيص.

والواقع أن العلويين في غمرة العجلة على الإصلاح قد أساءُوا تقدير الموقف الحضرمي السياسي، ولم يحسنوا الاختيار، وأساءوا تقدير القوى الفاعلة على الأرض، التي يمكنها أن تسنده، ثم أن موقفهم لم يكن مُوحَّداً؛ إذ إن سادة عينات ومعهم يافع لبعوس وقبائل أخرى لم يقبلوا به عن رضا واقتناع، وإنما جاء قبولهم به خشية هيبته حال ظهوره بالمدفع والمال، وتجنُّبًا لشرِّه أو عداوته، وبمرور الوقت انفضُّوا من حوله، بل دخلوا معه في صراع وحروب، كما كشفت عن ذلك الوثائق التاريخية التي تنشر لأول مرة، وهو ما يتفق مع ما ورد في "بضائع التابوت"، في مكاتبة من الشيخ الكبير محمد بن عبدالكريم بن عبد الرسول العطار، بعث بها للحبيب محمد بن عيدروس بن عبدالرحمن الحبشي بتاريخ الأربعاء من صفر



سنة ١٢٤٤هـ، يقول فيها: "وما ذكرتم من قيام يافع الفئة الباغية بحضرموت، ومخالفتهم على السلطان عمر بن مقيص، فالله تعالى ينصره عليهم (أ.هـ). وفي هذا ما قد يؤيد ما رواه زربادي من خبر غرامة معه، ومن أخرى منه إليه بتاريخ ١٤ محرم ١٢٤٥هـ، وتريم ذكرتم أن عسكر يافع فيها نكثوا العهد على بن مقيص وهو في مكانه، إلى آخر ما ذكر"(٣٤).

وهناك من يضيف إلى أسباب انهيار دولة ابن مقيص حيلة القبائل المسلحة التي لم تستطع أن تواجهه عسكريًّا؛ لأنها لم تمتلك السلاح مثله فسالمته، ثم اتفقت على أن تأتي ضيوفًا تصابحه وتماسيه قبيلة بعد أخرى؛ استغلالاً منها لسخائه وكرمه، فأهدر أمواله الكثيرة في الضيافات والعطايا، وبدأ الاضطراب يعصف بدولته، ولم يعد يمتلك حينها المال الكافي لدوام استمرارها فانهارت دولته الفتيه تدريجيًّا(٣٥). وكانت "أقصر من ظمء الحمار حتّى لقد صارت مضرب المثل في قصر المدّة"(٣٦).

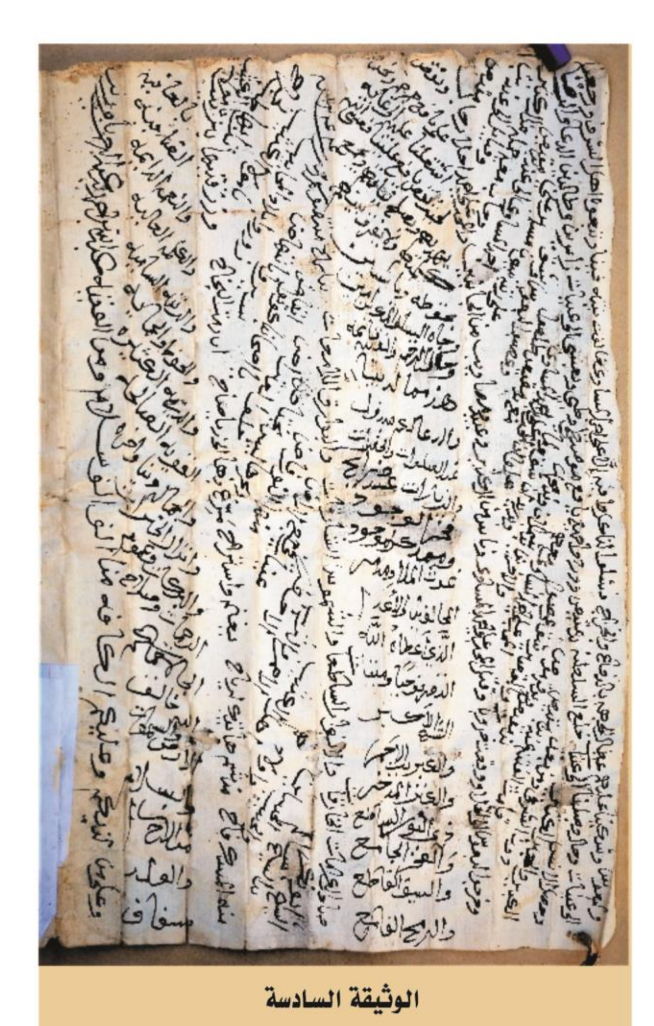
ومهما يكن من أمر فقد أصبح ابن مقيص مضرب المثل في قصرِ مدّة حكمه، وفي هذه الدولة، وفي أميرها، قال وزيرها السيد عبد الله بن أبي بكر عيديد من قصيدة طويلة كلها تأسُّف وتحرُّق:

ولمَّا رأيت لهاة الهياج
حسبتك فحلاً وأنت خصي
تبرقع فإنك مثل النساء
وصغ لك عقدين من بصبص
لقد هانها الله من دولة
تربت على الدِّجر والحنبص

إلى قوله:

فخلوا البنادق لأربابها
وشلو بديل البنادق عصي
وقولوا عسى الله ينصف لنا
ويرجم أعداءنا بالحصي

ومات السيد عيديد، تغمده الله برحمته، ولم يذكر مصادر التاريخ هل كان يعني ببيتيه الأخيرين العلويين بُنَاة الدولة،



الوثيقة السادسة

أو كان يعني أميرها ابن مقيص ورجاله؟!. ويبدو أن الشاعر كان ذا روح فكاهية باسمة، تضحك في وجه المكاره، وعندما يرين الفشل على النفوس. لقد كان له، على أي حال، نصيب من (دولة الدّجر والحنبص) بحُكم وزارته لها.

وهال الزمان التراب على ابن مقيص ودولته، وبقي شعر السيد عيديد يشيع البهجة في النفوس المكلومة، وينفس عن الناس كربتهم وضيقهم من تذكر تلك الأيام السوداء(٣٧).

الخلاصة:

تكمن أهمية هذا البحث في كونه يقدم معلومات وحقائق تاريخية جديدة، استنادًا إلى وثائق تاريخية أصيلة، تنشر لأول مرة، تعود إلى زمن الحدث، تكشف تفاصيل مجهولة، وتميط اللثام عن كثير من الغموض واللبس الذي ساد عن دولة ابن مقيص – حضرموت، ذات العُمر القصير. ومن ذلك أن ظهورها ليس في ١٥/ ٤/ ١٢٤٣هـ كما ورد في كثير من المراجع،



بل في الأرجح يعود إلى العام السابق له ١٢٤٢هـ، وشاهدنا على ذلك الرسالة المؤرخة قبل ذلك التاريخ بشهرين، وتحديداً في ١٥/ ٢/ ١٢٤٣هجرية[٣٨]؛ لأنها تصف هيبة الدولة ونفوذها القوي حينها، بما يعني أنها كانت قائمة قبل ذلك التاريخ بفترة زمنية لا تقل عن أشهر عدَّة، وهيبتها دون شك سابقة لنشأتها بفترة كافية، ومع ذلك تظل معرفة يوم وشهر نشأتها مجهولاً، وقد تكشف عنه وثائق مماثلة تظهر في المستقبل. ورغم أن الرسائل الثلاث لم تذكر الاسم الكامل لابن مقيص واكتفت بكنيته، ولم تشر إلى نسبه هل من يافع أو تميم، ويظل ذلك محل تنازع بين يافع وتميم، لكنها أشارت بوضوح إلى دخوله الحرب مع تميم ضد يافع وعينات وحلفائهم حينما تطورت الخلاف إلى حرب بين الطرفين، وهذا في تقديرنا يرجح فرضية نسبه إلى آل أحمد التميميين، ولو كان من آل أحمد القعيطيين أو من يافع عامة، لكانوا آزروه ووقفوا معه.

وخلص البحث وفقًا لما بيَّنْته الوثائق أن ابن مقيص لم يكن رجل دولة، ولا ذا طموح للحكم، وإنما خضع للظروف ولرغبة العلويين، الذين اقنعوه بتقبل دور الحاكم، السلطان، وأنه على غير الشائع مما روّج له العلويون (في أنّ عمر بن مقيص استولى على سلطنة تريم، وأن يافع أذعنت له بالطاعة، وألقت إليه أزِمَّة الرياسة عن طوع واختيار)[٣٩]، لأن يافع، كما أفصحت عنه الرسائل وما أوردته من أحداث وما بيَّنْته من خلافات قادت إلى نزاعات وحروب، لم تقبل بدولة ابن مقيص عن رغبة وقناعة ومثلها عدد من القبائل، وإنما قبلوا بها خشية لما أشيع من قوتها لحظة ظهورها لتجنب عداوتها. بل بيّنت الرسائل أنَّ العلويين لم يكونوا جميعهم متفقين على دعم دولة ابن مقيص وإسنادها، كما يُشاع، بدليل موقف سادة عينات المعارض لاستئثار ابن مقيص بنصف مواردهم إجباراً، وبدون وجه حق يروه، فظلوا يترقبون الفرصة لاستعادة حقهم ومكانتهم بين اتباعهم.

وخلاصة القول إن دويلة ابن مقيص كانت حدثًا عابراً في التاريخ الحضرمي المعاصر، ومثلما ظهرت فجأة، دون تمهيد كافٍ على الأرض أو إعدادٍ لكامل مقوماتها، فقد دخلت في دوامة الاضطرابات وانتهت سريعًا، قبل أن تحقق المرجو من قيامها في وقف الفتن وإشاعة العدل والأمن والأمان، كما حلم مؤسسوها العلويون، وأصبحت مع حاكمها في ذاكرة الحضارم موضوعًا للسخرية والتندُّر وضرب الأمثال بقصر مدة الشيء.

هكذا أفلت دويلة ابن مقيص والناظرون إليها ينشدون قول التهامي[٤٠]:

يا كوكبًا ما كان أقصر عمره وكذا تكون كواكب الأسحار

وبعد أن يئسوا وعادوا فولَّوا وجوههم مرة ثانية شطر منصور بن عمر الكثيري وإذا هو لا يزال منهمكًا في إيقاد نيران الفتن، وارتكاب المناهج العمياء في سلوكه السياسي المذبذب.

---

* أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية جامعة عدن.

الهوامش:

٢٧. المختصر في تاريخ حضرموت: ص١٠٦.
٢٨. بضائع التابوت: ٢/ ٢٧٧.
٢٩. بضائع التابوت: ص٢٧٩.
٣٠. انظر صورة الوثيقة رقم (٢)، رسالة عبد الحبيب بن صالح بن محمد سعيد الجحوشي الضُبَي، التي بعث بها من المكلا إلى فقهاء بني بكر.
٣١. متعورٌ: من العار، أي مستنكر، وكأن ما حدث عارٌ لحق به وجب محوه.
٣٢. انظر صورة الوثيقة رقم (٣).
٣٣. انظر صورة الوثيقة رقم (٣).
٣٤. بضائع التابوت: ٢٨٠/ ٢.
٣٥. تاريخ حضرموت: ص٩٠.
٣٦. إدام القوت، ص٨٤٥. الظِّمْءُ والجَميعُ الأظْماءُ: حَبْسُ الإبِلِ عن الماء إلى غايَةِ الوُرُودِ؛ فما بَيْنُ الشِّرْبَيْنِ: ظِمْءٌ. وظِمْءٌ. وظِمْءُ الحِمارِ أي يَسيرٌ لأنه ليس شيءٌ أقْصرَ ظِمْئاً منه.
٣٧. بالمختصر في تاريخ حضرموت، ص١٠٦. المعلم عبدالحق، ص١٣١.
٣٨. انظر صورة الوثيقة رقم (١).
٣٩. بضائع التابوت: ٢/ ٢٧٧.
٤٠. تاريخ الدولة الكثيرية: ص١٩٥.